الاخيرتين « القراءة في العيون المغمضة » و« نكهة خاصة » لنعود الى اجواء قريبة جدا من اجـواء السيرة الذاتية الموضوعة في قالب قصصي التي عودنا عليها سهيل ادريس في رواياته الثلاث .

تنظر هذه المجموعة الى النضال الفلسطيني في تتابعه التاريخي . فالخط الذي يربط القصة الاولى بالقصة الخامسة هو خط مستقيم لا تعرجات فيه . وقصة « العراء » حين تتعـرج وتحمل التواءات عنيفة في هذا الخط فانها تحافظ على السمة العامة. فالتعرج هنا ليس وليد ارادة ذاتية او فنية ، انه انعكاس مباشر للواقع ، للضياع والمهانة والذل بعد هزيمة مفاجئة « صاعقة » سقطت فجأة « ولم يقل لها شيئا ، بل قال لنفسه ان المرء اعجز من ان ينفي الصاعقة حين تنقض عليه » . ثم يتابع الخط حركته الاولى في القصتين الاخيرتين . ان مصدر هذا الخط هو موقف فني واقعي . لكـن الواقعية تؤخذ هنا في اكثر معانيها كلاسيكية . فالقصة هي تعبير عن الواقع . تتعامل معه بشكل مباشر وتقوم بتصويره مـن منظور ايديولوجـي تقدمي . هنا علامة التشديد هي لهذا المنظور مع محاولة لتجاوز الاطار التتابعي التاريخي عبـر اللجوء الى سيكولوجية ابطال القصص ووضعها ضمن شريط الذكريات . فيقوم هذا الشريط بعملية مزدوجة : ــ يضع القصة في اطار واقعي حياتي، فنحن هنا امام شخصيات حقيقية تتصدى لمهمات تاريخية ، ولسنا أمام مهمات تاريخية فقط ــ كما يستحسن الخط القصصي بقدرة على الحركة غير المتوقعة . فتجربة بطلة « الليل والاسلاك » مـع ابرهيم لا تتوقف عند حدود التجربة النضالية ، بل تمتد لتشمل بعدا انسانيا يعطي هذه التجربة قدرتها على الاستمرار ضمن توتر انساني عميق يفرضه منطق العلاقات الانسانية .

تعطي علامة التشديد الواقعية لهذه القصص مذاقا خاصا . فهي لا تستطيع الانفجار ، والتوتر فيها يبقى خافتا ، لذلك فانها حين تلجأ الى البناء الواقعي فانما تنقل موقفا فنيا متكاملا ، لا يلغي التجربة الابداعية ولكنه يضعها في حيز ايديولوجي ظاهر . ينقل الينا البناء القصصي تجربة واحدة . نحن دائما في مستويين فنيين : **السرد** الذي يضم البناء القصصي اليه ، راسما اطاراته الاساسية. انه الخلفية والمساحة التي تتحرك فيها الشخصيات لذلك يحمل السرد نبرة تقديرية ، يجمد الموقف للحظات قليلة ثم يترك الحدث يتشكل ببطء ضمن حوار هو جزء من المقدمـة السردية لانه يأتي ليؤكدها وليعطيها بعدا واقعيا . ثم يأتي **شريط الذكريات** ليشكل زمنا آخر يتداخل مع زمن القصة. انه ماضي الماضي الذي تحمله الحركة القصصية . يؤدي هذا الماضي دورا هاما ، لانه يقوم بالكشف السيكولوجـي أي يتصـدى لاستنطـاق هـذه الشخصيات في تاريخها وفي نوازعها الاساسية . فيتحول العمل القصصي مع تشابك هذين المستويين الى صفحة مستوية ، الى تراكم حدثي يقوم بكل أمانة بنقل الاختيار الايديولوجي على بساط واقعي.

يقود هذا الاستعراض الاولي للبنية القصصية في هذه المجموعة الى طرح مجموعة من الاسئلة :ــ

البناء الفني والانعكاس : تلخص قصة «العراء» البناء الفني عند سهيل ادريس بشكل مكثف . فهي تنطلق من شريط غير واقعي ــ الجندي ــ يلعب هذا المشهد الدور الكلاسيكي الذي تلعبه المقدمة السينمائية . أي انه يضعنا في الجو العام . القمع ــ الذل . ثم ننتقل الى جو واقعي يومي . يدخل بطل القصة الى مكتبه تعطيه سلوى الصحف الاجنبية التي تحمل صورا ذليلة عن حرب حزيران يحس بالضيق ويقرر الذهاب الى شاطىء البحر . هنا يدخل العامل السردي الممزوج بالحوار ليرسم لنا الاطار الذي تدور القصة في ظلاله . بعد ذلك يبدأ الكابوس البطل وحيدا في الصحراء ، يرمي الترانزسـتور ، رمز الاعـلام العربي . هنا نبدأ بالسرد المشحون المتوتر وننتقل الى شريط الذكريات الى غسان المقاتل الذي انقطعت اخباره . اما القسم الاخير فيحمل لنا عودة الى الواقع ، لنكتشف ان هذه الرحلة الى الصحراء كانت حمى أصيب بها البطل لتسمح له ان يكفر عن ذنوبه « فأغمض عينيه من جديد ، فرحا ، حزينا . أحزنه الا يحفظ الفارق في التشبيه ، مرة أخرى . ان يقرن بغسان ، ان تشبه رحلته التافهة برحلته الكبيرة العظيمة . ولكنه مع ذلك ، لم يتمالك الا ان يستشعر بعض العزاء : أن يكون قادرا الان على ان يتصور تلك الرحلة ولو تصورا » . يقود هذا البناء الفني الى النظر الى موضوع انعكاس الواقع على الادب انعكاسا غير مباشر ، انه يتر هنا بتجربة وبرسالة ايديولوجية . والقضيتان أي التجربة والرسالة ، هما وحدة فنية تقود الى